ملعقة بذمة

> «المالُ مالُ الله.. إن شاء نَمَّاه وأَرْبَاه، وإن شاء ذهب به وأفقرَ صاحبه»

من عادة الرجل- كما ذكَرتُ- في ليالي الشتاء الاستعانة علىٰ البرد بعدة أمور، منها وسائل التدفئة المختلفة من التكييف والمدفأة وموقد الغاز الذي يستخدم في إعداد المشروبات الساخنة.

وكثيرًا ما يعمد إلىٰ بعض التمارين الرياضية من الجري في المحل أو مُلاكمة التلاميذ، وكم حظيت بلكماتٍ حنونةٍ كالهدهدة يُعبِّر بها عن استعادته للنشاط واستعداده للمواصلة، ويبث فيها بعض النشاط في التلاميذ.

ومن بواعث الضحك بيننا أنه كان إذا سأله أحدٌ عن كمية السُّكَّر التي يضعها في كوبه يرد بقوله: ملعقة بذمة.

فيقوم الرجلُ منا بوضع ملعقة كبيرة هي في الحقيقة ملعقتان، ولم يكن هذا ليعجبه فيصيح: يا أخي حرام عليك، أقولك بذمة تحط دي؟! فتوضع له واحدة أخرىٰ بذمة، وبذلك تصير الملعقة الواحدة بقُدرةِ قادرٍ أربعًا!

لم يكن ليستنكف أن يصنع لأحدنا المشروب، ويبادره بالسؤال المعتاد: سُكَّرك قد إيه؟!

كنت شخصيًا أرد بسرعة: العفو يا أستاذنا أنا أضعه لنفسي، وحينها

كان يُزبِدُ ويُرغِي، ويقول: دَعْكَ من هذه المهاترات الفارغة يا أخي.

هنا لا أجدُ بُدًّا من طلب ثلاث ملاعق بذمَّة علىٰ مذهب الإمام.

هذا يجرنا إلىٰ الحديث عن تواضعه، فقد كان الرجل آية في التواضع، لم يمنعه من ذلك علاقاته الممتدة بكثير من أصحاب الجاه والسلطان، وغيرهم من الشخصيات المعروفة في مصر والعالم، وتعدد سفرياته إلىٰ بقاع الأرض وأصقاعها من الهند وإندونيسيا شرقا إلىٰ أمريكا غربًا، وإقامته في أرقىٰ الأماكن، إلا أنه كان يميل إلىٰ التواضع في كل شيء، وربما كانت سعادته بطبق البطاطس المسلوقة، أو العجوة بالبيض، أو المحشي المسخَّن جيدًا، سعادة لا تعدلها سعادة.

طالما رأيته متبسطًا مع مَنْ عرف ومَن لم يعرف، ولم يضق بأحد إلا إذا كان منشغلا بعمل ما، فعندها لا مانع لديه من إنهاء الحوار سريعًا، وتوبيخ المتحدثٍ لإفراطه في الحديث، وعدم مراعاة السياق الخاص بالكلام..

***

من علامات تواضعه أنَّا صلينا العشاء ذات مرة في أحد مساجد منطقة العجوزة، قريبًا من شقته الواقعة بشارع طنطا.

فرغنا من الصلاة واتجهنا صوب أحذيتنا.. فهالني ما حدث!

يا إلهي!

إنه يحمل حذاءه وحذائي أيضًا.. سارعت لأنزع حذائي من يديه، فأبىٰ تركه إلا علىٰ الباب.

صرتُ في حرجٍ من أمري، وتفصَّد جبيني عرقًا، وأحسست بحمرة الخجل تصبغ وجهي..

وما إن وضع حذاءينا علىٰ الأرض حتىٰ انكببت علىٰ يديه أقبلها وسط دهشة رواد المسجد الذين يعرفون الرجل جيدًا..

ولا أدرىٰ لِمَ فعل هذا؟!

هل وجد في نفسه شيئًا من العُجْبِ فأراد زجرَها؟!

ربما..

وكان درسًا من أستاذي.

وحدث قريبٌ من هذا مع صديقي الداعية القارئ حسن صالح- الذي يعمل إمامًا لأحد المساجد بالولايات المتحدة الأمريكية- ففي إحدىٰ إجازاته اصطحبته لزيارة مولانا أيام مرضه..

صلَّىٰ بنا حسن، فأخَذَنا إلىٰ عالم ملائكي شفيف.. فلصَوْته حلاوة تجلُّ عن الوصف.. طلب منه الدكتور أن يقرأ ويقرأ.. فقرأ حتىٰ جهد صوته وهو يستمع باكيًا.

انتهىٰ الرجل من تلاوته، فأشار إليه مولانا يطلب منه الاقتراب من فراشه، اقترب طائعًا، فباغته الدكتور بتقبيل رأسه.

وبكىٰ!

لم يكن- حال زهده- يجد أدنىٰ غضاضة في أن يفترش أرض بيته بقريته متوسدًا حذاءه وسط مجموعة من الأوراق والمجلات والكتب المبعثرة هنا وهناك.

وكان في عُمْرَة، فأخذ رفيقه الحدّاد يدعو الله ويبتهل في الطواف قائلا: اللهم اشف الدكتور عبد الحليم عويس، فوكزه مولانا وكزة خفيفة قائلا: تحشَّم مع الله يا أخي، دكتور إيه وبتاع إيه؟!

قل: عبدك عبد الحليم عويس.

وأغلب ظني أن كثيرًا من زهده الذي بلغ أوجه في سِنِي حياته الأخيرة، اكتسبه من معاشرة شيخه عبدالسلام أبي الفضل ومصاحبة الشيخ أبي الحسن الندوي- رحمه الله- وغيره من رموز الحركة الإسلامية في الهند، كما كان للأستاذ أنور الجندي بالغ الأثر، فقد حكي- رحمه الله- أنه تلقىٰ درسًا في الزهد لم ينسه طيلة حياته، ذلك أن إحدىٰ الدور نشرت بعض كتب المفكر الموسوعي أنور الجندي دون إذن مسبق منه، فساء ذلك الدكتور عويس، فقابل الأستاذ الجندي وأخبره بالأمر حتىٰ يتخذ الطرق القانونية التي تُعيد له حقوقه، فما كان من الرجل إلا أن سأله عن اسم الدار وطلب منه أن يُبلِّغ شكره العميق لهم بسبب نشر ما يكتب ووصوله إلىٰ القارئ.. يقول مولانا: فتعلمت حينها أول درس حقيقي في الزهد.

***

ذهبت إليه ذات مرة في مجلة التبيان بالجمعية الشرعية، فاستقبلني قائلا:

- تاكل إيه؟!
- أي حاجة يا أستاذنا
- تاكل أرغفة سِمين؟!

لم أدرْ حينها ما المقصود بهذا السِّمين، قلت مستفهمًا:

- نعم، سمين إيه؟!
- وحضرتك ما تعرفش السِّمين؟!
- لا والله، مش واخد بالي.
- طيب أنا هجيب، وأنت ابقىٰ شوفه براحتك.. وأرسل حينها من يأتي بأرغفة السمين للعاملين بالمجلة كلها من حسابه الخاص، وجلسنا نأكل ومعنا الأصدقاء السنوسي محمد وإسلام فرحات.

ظل الطعام مثار جدل لا ينقطع بيني وبينه، فالرجل يضغط عليَّ بكميات الطعام التي لا طاقة لي بها، وأنا مُقِلٌّ بطبيعة الحال، وكثيرًا ما كان يرىٰ ذلك عيبًا من عيوبي.

وعندما كنا في زيارة للسودان الشقيق دعانا وزير الدولة للثقافة علي مجوك، فبدأ الدكتور في تعريف الرجل بي– وتلك عادته أن يعرف مرافقه تعريفًا ضافيًا مهذبًا لا يخلو من المجاملة– فقال ما شاء الله له، ثم شفعه بقوله: ولكن للأمانة عنده عيب خطير.

تجمَّدت الدماء في عروقي، فنحن في قُطر غير القُطر.

ولكن الرجل– والحمد لله– كان أكرم مما تخيلت، فاستأنف قائلا: عيبه الوحيد أنه مُقِلٌ في الطعام، وكثيرًا ما يستنكف عن أكلِ العامة أمثالي.

ضحك الوزير وتنفستُ الصعداء!

***

كرم الرجل لا يُبارىٰ بحال من الأحوال، وإن قصائد لا أحصيها

دُبِّجت في هذا الكرم العويسي.. ولا عجب!

كانت هناك وليمة سنوية في قريته يقيمها لأعضاء رابطة الأدب الإسلامي وفيهم الأساتذة والشعراء والنُّقاد والقصَّاصون، أذكر علىٰ سبيل المثال: الدكتور عبد المنعم يونس، والدكتور سعد أبو الرضا، والدكتور صابر عبد الدايم، والأستاذ إبراهيم سعفان، والمهندس وحيد الدهشان، والأستاذ محمد فايد، والشاعرة محبوبة هارون، والشاعر النوبي الخلوق محيي الدين صالح، والصديقان الدكتور محمود خليل والكاتب محمد القوصي، وغيرهم كثير، ولا يُسمح لامرئ بالتخلف عن الوليمة ولو بعُذرٍ قاهرٍ.

في هذه الوليمة تُقدم أنواع الطعام واللحوم الفاخرة ما ظهر منها وما بطن، غير أن الضأن سيد الموقف، أضف إلىٰ ذلك ما سعىٰ علىٰ رجلين كالأوز، والبط، والدجاج، والحمام، وغير ذلك من أطايب الطعام..

كانت مناسبة لإلقاء أطرف القصائد وأكثرها فكاهة بعيدًا عن السياسة وتعقيداتها، ونظم الشاعر الراحل عبد الرازق الغول قصيدة عارض بها قول المتنبي مستهلها بقوله:

علىٰ قدرِ أهلِ الفضلِ تأتي (العزائمُ)

وتأتي علىٰ قدرِ الكرامِ (الولائمُ)

وكرم الرجل حاتمي يصل إلىٰ درجة التبذير، فقد عشنا سنوات في بيته لم ينقطع عنه الضِّيفان يومًا، وما أسهل أن يحدِّثه أحد في الهاتف للاطمئنان عليه فيكون جوابه قاطعًا: إذا أردت الاطمئنان عليَّ فهلُمَّ

إليَّ، وبانتظارك الطعام لا نأكل حتىٰ تأتينا، وكثيرًا ما يتصل بالضيوف يجلبهم من داخل القاهرة وخارجها فرحًا بما يصنع.

وكم مرة استدعىٰ الكاتب جمال سلطان للغداء أو العشاء.. ولا تجدي توسلات الرجل للاعتذار أو حتىٰ لإرجاء الموعد لانشغاله بإنجاز العدد الجديد من صحيفة (المصريون)[1]!

كان لزوجته الثانية– بعد وفاة الأولىٰ- جهد لا ينقطع في إعداد الطعام ومعها الخادمة، بيد أن هذا الجهد لم يك كافيًا لاستيعاب الأعداد الغفيرة من قاصدي بيت الرجل بمدينة نصر وفيهم المصري والأجنبي، والأبيض والأسود، بل والأصفر أحيانًا.

بيت الرجل بمثابة جامعة إسلامية يفيء إليها كل هؤلاء.. من طلب منهم علمًا، ومن جاء يطلب عونًا.

كان الرجل (أكِّيلا) ولم يك (أَكُولا)..

يحتفي بالطعام احتفاءً شديدًا، وليس يصبر علىٰ جوع، والويل كل

(1) أشار سلطان إلىٰ ذلك في مقاله (في وداع عبدالحليم عويس) في صحيفة (المصريون) بتاريخ 15 ديسمبر 2012، كما أشار إلىٰ دعمه -رحمه الله- لصحيفته ماديًا؛ يقول: «الحوار السابق عادة ما كان يتصل «بدفعة» مالية جديدة يخرجها عبد الحليم عويس من حر ماله لدعم صحيفة (المصريون) الالكترونية، الآن أقول ذلك بعد أن أفضىٰ الرجل إلىٰ ربه، وانقطعت سبل المجاملات أو الرياء، وحقه علي أن أسجل أمام قراء (المصريون) أن هذا الرجل كان أحد أبرز رعاة موقع المصريون، وفي السنوات الأخيرة عندما اشتد به المرض وأحس بدنو الأجل فقسم ما رزقه الله من ثروة محدودة بين أبنائه، كان قد جعل لـ (المصريون) ـ ضمن مؤسسات أخرىٰ ـ نصيبًا من ذلك المال، فكان يعطي منه علىٰ فترات ، يسد به دينا تراكم علينا أو يعيننا في بعض شؤون العمل».

الويل لزوجته وخادمتها (أم أمل) وبديلتها (نَصْرَة) لو تأخر الطعام، أو أتاه باردًا؛ لأن بإمكانه إعادة الطبق الواحد لتسخينه عدة مرات.

والويل لي وللحداد إن كان ينتظرنا علىٰ الطعام ولم نصل بعد، فهاتفي الجوَّال لن يكف عن الرنين لحظة، ويأتي السؤال المعتاد: إنت وصلت فين دلوقتي؟! بسرعة يا أخي حرام عليك.

اتق الله! جَوْعَىٰ يا أخي والله، جَوْعَىٰ

***

في كل مكان يسكن فيه كانت له علاقات وطيدة مع المطاعم الكبرىٰ، حتىٰ إن صوته كان مميزًا لديهم.. وهكذا لم يبخل يومًا علىٰ ضيف له.

كان موقنًا تمام اليقين أن الكرم عبادة كالصوم والصلاة، تُعبِّر بشكل أو بآخر عن تعامل الإنسان مع مبدأ استخلافه، وكثيرًا ما كان يُردد: المالُ مالُ الله، إن شاء نَمَّاه وأَرْبَاه، وإن شاء ذهب به وأفقرَ صاحبه..

وعلىٰ الضيف القادم أيًا كان وضعه ومنصبه، أن يقبل بتناول الطعام مهما كانت درجة شِبَعه؛ لأنه سيُرغم حتمًا علىٰ إدخال الطعام علىٰ الطعام، ولن يُجدي معه نفعًا أن يحاول الاعتذار، وقد رأيت بعيني شخصياتٍ وقاماتٍ كبيرةً تُضطر إلىٰ تناول الطعام كما الطفل الذي أحسَّ بالشِّبَع ولم تنفعْه توسلاته إلىٰ أمِّه بكفِّ يدِها عن فمه.

ليس هذا فحسب، لكن الضيف حتمًا سيأتيه بعد ساعة سؤالٌ مُباغتٌ من أسفل النظارة الطبية لمولانا: ما جُعتش يا أخي؟!

فتأتيه الإجابة عندها طالبة العتق من رِقّ الطعام: لا والله يا أستاذنا، إحنا لسَّه واكلين من ساعة.

كانت ديكتاتورية الرجل في إطعام الطعام لا تُوصف.

ديكتاتورية ما أحلاها!

معـارك مـولانا

«وسيبقىٰ في كل عصر، وإلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها، دعاة ثابتون عاملون فقهون، ظاهرون علىٰ الحق لا يضرهم من خالفهم»

ليست هذه معارك بالمعنىٰ الذي قد يتبادر إلىٰ ذهن القارئ الكريم، إنما هي خلافات فكرية، ومساجلات حياتية، اختلفت فيها وجهات النظر، كان يظن كل طرف من الأطراف أنه علىٰ صواب.

خلافات رأيتها جديرة بالعرض والتسجيل، ليس فقط لأنها تُظهر روحه الوثَّابة، وهمته العالية، وشجاعته الصادمة أحيانًا؛ لكنها تنقل جانبًا من حركة الحياة الفكرية والعلمية في عالمنا، كما تُقدِّم صورة حية لأدب الاختلاف بين النخبة الحقيقية الجديرة بالاحترام، وهي القيمة التي افتقدناها بعد حالة الانفلات الأخلاقي، وليس منطقيًا أن أذكر جانبًا من حياة الرجل، وأُغفل جانبًا آخر..

فسنرىٰ الرجل هنا مغاضبًا، كما رأيناه راضيًا..

***

وُلد الفتىٰ عويس معتدًا بنفسه بدرجة كبيرة، وحدَّد هدفه في الحياة باكرًا..

قرر أن يكون له شأن في معتركها، حتىٰ إنه وهو تلميذ صغير بالمعهد الديني الأزهري جلس في مقعد واحد مع زميل له يكبره